تجلّي الخطاب السيّاسي الإسلاميّ في الشّعر الجزائريّ المعاصر (مجموعتا مصطفى محمّد الغماري*؛ " أسرار الغربة " و" بوحٌ في موسم الأسرار") مدوّنة.

الأستاذ: يحيى دعّاس

قسم اللغة العربية و آدابها

المركز الجامعيّ سوق أهراس

الملخّـــص:

يمثّل تعدّد الخطابات السياسية في الشعر الجزائري المعاصر ظاهرة أسلوبية قمينةً بأن تُخصّ بدراسات نقدية في الأشكال والمضامين، ومقالي – المعنون أعلاه – يندرج في هذا المسعى؛ فقد تناولتُ فيه ظاهرة الخطاب الإسلاميّ السياسيّ في مجموعتين من مجموعات الشّاعر مصطفى محمّد الغماري. وقد أظهرت الدّراسةُ اتّخاذ **الغمـــاري** مواقفَ سياسيةً متنوّعـــة: إذ تحدّى وندّد بأعداء فكرته وعارض الأنظمة العربية الحاكمة، مندّداً باستبدادها مستنكراً الواقع المفروض. ثمّ أظهر تضامنه مع قضايا المسلمين في العالم، رافضاً سياسة التّغريب التي يقف وراءها أعداءُ الإسلام التاريخيين... كلّ ذلك في قصائد تطفح واقعية رومانسية.

هدف مقالتي هذه تناولُ مظانّ الخطاب السّياسيّ في المجموعتين المذكورتين في العنوان، بالكشف عن مواقف[1] اتّخذها الشّاعر من خصومه وهم أعداء فكرته التي يحيا لها، ومن الأنظمة العربية، مظهراً تفاؤلَه بقرب تحقّق حلمه السّياسيّ، ثّائراً على واقع متردّ مفروضٍ مرفوض، متضامناً مع قضايا المسلمين المستضعفين في العالم. هذه المواقف تكرّرت، هنا وهناك – ظواهر– إن في " أسرار الغربة " وإن في "بوح في موسم الأسرار."

وقد بيّنت الدّراسة أنّ مقاطع السّياقات السّياسية يمكن توزيعُها على مواقفَ خمسة:

1– تحدّي الأعداء والتّنديد بالشّيوعية.

2– معارضة الأنظمة العربية الحاكمة والتّنديد بها.

3– تبنّي الحلّ لإسلاميّ واستنكار الواقع المفروض.

4– التّضامن مع قضايا المسلمين في العالم.

5– رفض سياسة التّغريب والتّنديد بأعداء الإسلام التّاريخيين.

أوّلاً : تحدّي الشّاعر أعداءَه الشّيوعيين وتنديدُه بفكرتهم

إنّ الغماري صاحب فكرة، وفكرته هي خدمة الإسلام رسالةً إنسانية تتعمّق الحياة اليومية بكلّ أبعادها الاجتماعية والسياسية والفكرية– كما يقول الأستاذ محمّد ناصر– وهو يقف موقف العداء الصّريح ضدّ أولئك الذين يراهم أعداء رسالته من الدّعاة إلى المذاهب الإلحادية والمادّية، بأشعار فيها عنفٌ وجيشانُ عاطفة.[2]

وهو في هذا الصّدد يتحدّى أعداءه الشّيوعيين مسفّهاً فكرهم المادّي في مواطن كثيرة من المدوّنة:

أ- **ففي "أسرار الغربة"** يتبدّى هذا الموقف في ستّة مقاطع؛ ثلاثة منها في " **ثورة الإيمان** " والأخرى في " **أزهـــار الحنـــين** " و" **اطمئنّـــي أمّـــاه** " و"**معزوفـــة الألم** ".

في المقطع الأوّل من "ثورة الإيمان" يصرّح الشّاعر بتنديده بأعداء دينه وفكره ومذهبه، الذين يحاربونه، ويقولون فيه زورًا. لكن هيهات!! فهو غصّةٌ في حلوقهم، ونارٌ تشوي قلوبهم. وهو في ذلك لا يذكرهم بأســمائهم ازدراءً لهم واستهانةً بفكرهم. ولعلّ بناءَه الفعلين (يُحارب، يُرمى) لما لم يُسمّ فاعله، وتعمّدَه الإشارة إلى خصومه بضمير الغائبين "هم" (حلوقهم، قلــوبهم)، فيــه دلالة على قلّة شأنهم وكره ذكرهم. وها هو يقول: [3]

1- **أُحارَبُ في ديني وفكري ومذهبي وأُرْمَى بزورِ القولِ في كلِّ مَشعبِ**

2- **وما أنا إلاّ غصّةً في حــلوقهم وحشرجةَ ألأقْدارِ فيِ صدرِ مُذنِبِ**

3- **وما أنا إلاّ النّارُ تشوي قلوبَهم وإلاّ الضّحَى يَرْمي بأشلاءِ غَيْهبِ**

والملحوظ هنا، أنّ "**ثورة الإيمان**" أولى قصــائد " **أســرار الغربــة** " والمقطع المذكور مطلعُها وفي كلمة "ثورة" معاني السّخط والرّفض والتحدّي. فكأنّ الشّاعر سارع في باكورة باكورته (إذ **أسرار الغربة** أولى مجموعاتــه التّسع عشرة) بالإعلان عن أهمّ وأخطر همومه، إنّه محارَبٌ في دينه وفكره ومرميٌّ بالباطل من التّهم.

وفي المقطع الثّالث من القصيدة ذاتها يُفصح الغماري عن خصــومه؛ إنّهم الشّيوعيون الذين يروْن "أن لا إله" وأنّ الحديث عن الله خرافــة قديمــة لا تنفع، والدّين "مخدّر الشعوب"،[4] يقــول: [5]

13- **يقولون: ما الرّحمنُ؟ وما الهدى؟ كلامٌ قديمٌ ليس يجدي مُهزَأُ**

14- **ومــا ذاك والثّوراتُ فتحٌ مقدّسٌ جديدٌ لأبواب العقــولِ ومبدأُ**

15- شيوعيـــةٌ حمراءُ تَشفي غليلَهم ولكنّها تُدمي القلوبَ وتظمِئُ

16- يقولون: دعْنـــا من قديمٍ يُكرّرُ فما الدّينُ إلاّ للشعوبِ مخـدّرُ!

وهو في المقطع السّادس منها يكذّب الماركسيين اللّينينين الذين يزعمون أنّ الدّين خدعة الجُوَّع، مذكّرَهم أنّه عقيدة لمّا تمسّك بها قومه كانوا أساتذة وبناةَ حضارة، أمّا هم- وإن كانوا يدّعون أن لا شأن لهم بالدّين- فإنّهم اتّخذوا لهم إلهًا بشرياً يعبدونه وهو "لينين"، صاغرين أذلة على ما في فكره الإلحاديّ من زيف واضحٍ، حيث يقول: (6)

27- تقول نبـوءاتُ الرّفيق وفكرُه و"ماركس" في خَلق التّعاليم أوْحدُ

28-هو الجوعُ في بطن الأعاريب قد غزا ومـا الدّين إلا خدعةٌ وتصيّـدُ

29- كذبتم .. فما الإسلامُ إلا عقيـدةٌ تحلّى بها قومٌ فشادوا وشيّـدوا

30- وما أنتمُ والدّيـنُ يا من ركعتـمُ للينيـنَ والفوضى هنالك تُعبـدُ

31- وبُستُـمْ يديه في صَغار وذلّـة وللزّيف في أوهام لينيـنَ مشهدُ

وما يُلحظ في هذا المقطع أنّ مواجهة الشّاعر خصومَه فيها تهكُّمٌ وضربٌ من الهجاء فهم يكفرون بالنبوّة، لكنّهم ينبّئون ماركس ويعبدون لينين وفوضى الأشياء. والأفعال الماضية في الجمل: كذبتم، ركعتم، بُستم يديه، والأسماء: الفوضى، ذلّة، زيف، أوهام، فيها دلالة على ضعف خصومه الشّيوعيين وسفاهة فكرهم، وإلاّ فكيف يُنكرون على النّاس عبادة خالقهم وهم يعبدون بشراً مثلهم؟!

وفي "**أزهار الحنين**" يتحدّى الغماري أعداءَه الذين يعيبون عليه إسلامه ويؤذونه بأحقادهم، لكنّهم لن يتمكّنوا منه وهيهات! فهو ثابتٌ باقٍ حيّ يسري في دمه الإيمانُ ويأخذ بيده نورُ الهدى، يقول: (7)

24- **ويتيــه ليلٌ في السّلام يلومنــي ويشيخُ.. لا خجلٌ ولا استحياءُ**

25- **يَقتات منه الوهمُ يعصــر فكــره فتشوكنــي أحقــادُه الصّقراءُ**

27- **أنا لن أموتَ وفي دمي هتف الهوى فترفــرف أعماقيَ الخضــراءُ**

28- **أنا لن أموت وفي يدي ضوءُ الهدى وهــواكِ في الأجفان يا عذراءُ**

فقد جابهَ أعداءه – أعداء إسلامه- بأسلوب رومانسيّ، رمز فيه لهــم باللّيل وشخّصه؛ إذ جعله يتيه ويلوم ويشيخ ولا يستحيي، حقوداً تمكّنت منــه الأهواء فحفرت قلبه. ثمّ شبّههم بالغراب النّاعب، مؤكّداً تحدّيه إيّاهم بتكــرار جملة: " أنا لن أموت ". و" لن أموت " ردّ فعل الغماري على مــن تشــوكه أحقادُهم؛ إذ يتمنّون موتَ فكرته، لكنّها حيّة وستبقى إلى الأبد فــ "لن" نفــي المستقبل[8] (سيموت – لن أموت). والاستفهام غير حقيقيّ خرج إلى غــرض النّفي[9] فهمزة الاستفهام فيه للنّفي، والمعنى: "لن أموت" وقد كرّرها للدّلالــة على تمسّكه بما آمن به، مهما أصابه من قهر الأعداء.

وبالأسلوب الرّومانسي نفسه يلقانا المقطع الأوّل من "**اطمئنّي أمّــاه**" والأمّ في عنوان القصيدة هي عقيدة الشّاعر وفي ذلك دلالة علــى الانتمــاء القويّ والارتباط الوثيق- بعلاقة الفرع بالأصل- إذ الابن فرع من أمّه. فهو يناجي إسلامَه مظهرًا جلداً وتحدّيا كبيرين، فهو لا يخشى أعداءه، قويٌّ ثــائرٌ قوّةَ موج البحر وهديره، لا يثني عزيمته حُزنٌ، ثابتٌ أبيٌّ إباءَ الثوّار العرب، يقــول:[10]

1- **اطمئنّي فلست أرهــب شيئــاً أنـــا كالبحر ..موجةً ودويًّا**

2- **لن تذوقَ الظلامَ خضرُ الرّوابي لا .. ولن يُرهقَ الأسى قدميَّا**

3- **اطمئنّي .. يا خَصلةَ الفجرِ إنّي لم أزل ثــائرَ الخُطى ..عربيًّا**

اعتمد الغماري بعض مسميّات الطّبيعة لنقل أحاسيسه متوسّلا التّشبيهَ المفصّل في البيت الأوّل؛ حيث شبّه ثورته وتحدّيه خصومَه بالبحر في هيجانه وهدير موجه، والاستعارةَ بتشخيص الرّوابي وتشبيهها بإنسان يذوق. ثمّ إنّه نقل المعنويّ إلى المحسوس بجعله الظّلامَ مطعوماً يُذاق، واللّونَ الأخضر رمز الإسلام مقابلاً لحمرة الشّيوعية. وفي النّداء في البيت الثّالث مجاز مرسل؛[11] ذلك أنّ خصلة الفجر هي الإسلام بذكر الجزء (الفجر) – وهو أهمّ الصّلوات وأوّلها يومياً– وإرادة الكلّ: (الإسلام).

والطّرافة في توظيف الشّاعر أسلوبًا إنشائيا وهو يريد الخبر من الأمر المكرور (اطمئنّي) وهذا مما يخرج الأمر فيه عن حقيقته فيكون اللّفظ أمرًا والمعنى خبر،[12] فالدّلالة إذن هي: ستطمئنين. و تكرار هذا الأمرِ الخبرِ لدلالةٌ على الثّبات في مواجهة المصاعب وأتعاب أعداء الفكرة.

ب– وفي "بوح في موسم الأسرار"، يبرز تحدّي الشّاعر أعداءَه الشّيوعيين وتنديدُه بفكرتهم في موطنين فقط؛ في مقطع من "مري القلب" وآخر من "قدر الحرف"، رأيت عدم ذكرهما لمشابهتهما ما ورد في المقاطع المذكورة.

ثانياً– معارضة الأنظمة العربية الحاكمة والتّنديد بها

إنّ العروبة في أمجادها وبطولاتها وانتصاراتها مما يعتز ويُفخر به لكنّ شاعرنا اصطدم بضعف وفساد الأنظمة العربية الحاكمة مغرباً ومشرقًا وبخاصّة تلك التي تتغنى بعروبةٍ وقوميةٍ ضيقة حيث الرّوحُ العرقيّة المتعصّبة. ويزداد الأمر خطورة عندما يرى أنّ أكثر هذه الأنظمة خانت القضايا العربية وباعتها وانغمست في صنع زعامات وهمية على حساب همّ الشّعوب. بل إنّ بعضها معجب بما يخدم الضّلال وينشر الكفر والفسوق

والعصيان.[13] فكان أن أعلن عن موقفه الرّافض والمنـدّد بهـذه الأنظمـة مادامت تحارب الحقّ وتقتل كلّ آمر به، ونجد ذلك في تسعة مـواطن مـن المدوّنة أربعة منها في "أسرار الغربة"، وخمسة في "بوح في موسم الأسرار".

وسأكتفي- فيما يأتي- بإبراز أهمّ مقاطع هذا الموقف السياسـيّ فـي المجموعتين:

- ففي "**أسرار الغربة**"، وهي القصيدة التي عنْون بها الشّاعرُ باكورتـه مقطعان يعلن فيهما عن رفضه الأنظمةَ العربية مشرقاً ومغربا، وعن تهكّمه بالحكّام العرب الذين تسلّطوا على الشّعوب
العربية وأفسدوا في الأرض. يقول في المقطع الأوّل[14]

31- **ولأنت يا حبّي الخضيلَ مَواثقي .. أنـتَ الحدودُ**

32- **لا الفريةُ السّوداءُ في الوادي تقامُ لها السُّـدودُ**

33- **لا صيحةُ النّاعين تـر فُضها الكنانةُ والصّـعيدُ**

34- **لا فتكةُ "الآسادُ" تُغـ ريها بحسنائي "الفهـودُ"**

35- **الرّملُ يرفُضُ قـاتلَ الألَمِ المشرَّدِ والجـدودُ**

عبّر عن رفضه الأنظمة العربية بأداة النّفي "لا" المكرّرة ثلاث مرّات في أبيات متتابعة: لا للقومية العربية! وقد كنّى عنها بالفرية السّـوداء حيـث العرب دويلات تفصل بينها حدود (سدود). ودعاة القومية في مصر وسوريا أداة شرّ وموت، وصفهم بالنّاعين وفكرتهم ترفضها الأمّـة، ولا لصـيحتهم ولا لجرائم حاكم سوريا حافظ الأسد الذي فتك بآلاف المسلمين فـي سـوريا بإغراء الملك السّعودي "فهد". والطّريف أنّه جمع "أسد" و"فهد" جمع حيـوان وفي ذلك دلالة تهكّم وبغض. وإذا كان الشّاعر رافضاً القومية العربية ومندّدا بظلم الأنظمة العربية، فإنّه يحيل إلى البديل عنهم وهو النّظـام الإسـلامي:

" حبّي الخضيل " فهو قوانينُه (مواثقي) وهو الشّريعة (الحدود). والتّوكيد باللاّم[15] "لأنت" وتكرار الضّمير "أنت" – في البيت– فيه دلالة قوّة الانتماء، إذاً فالبديل هو الإسلام – نظامَ حياة – لا غيره. ولأهميّة هذا البديل عن واقع القومية العربية المرفوض، استهلّ به المقطع السّابق وجاء نفي تلك القومية بعده، إذ هو الأصل وفكرة القومية مستوردة، غريبة يلفّها الغموض فلتتأخّرْ. وفي ذلك تتجلّى فكرة الانتماء قويّة، فهؤلاء الحكّام العرب يريدون فرض فريتهم السّوداء – والسّواد لونٌ قاتم– على الشّعوب العربية، والشّاعر مع هذه الشّعوب معتزّ بانتمائه إلى عقيدته الإسلامية، رافضٌ أيّ خيار آخر.

وشبيهٌ بهذا الخطاب السياسيّ ما نجده في "مأواك في الغاب"، والعنوان فيه دلالة الفوضى والتوحّش والظّلم إذْ في الغاب يأكل القويّ الضّعيف، وهذا من صميم واقع الأنظمة العربية، فقد شنّع على الحكّام خيانتهم عقيدتَهم بارتمائهم في أحضان أعدائها، ومحاربتهم الإسلام. يقول: [16]

18– سَلِ المروءاتِ من باعوا ومن ذبحوا بالأمسِ تاريخَنا أضحَوْا ندامانَا

19– بعنا المروءاتِ في أوزارِ غُربتِنا ثمّ انتخينا سكرنا من خطايانَا

20– واسأل وكم خجلَ التاريخُ مَن طعنوا ضياءنا واستحلُّوا ذبح جُلاّنا

21– ثمّ استووْا يزرعون النّار في كبدي والعار في وطني هانُوا وما هانَا

فبأسلوب رومانسيّ شخّص "المروءات" فجعلها مرّةً إنساناً يُسأل وسلعةً تباع مرّة أخرى. كما شخّص التّاريخ فجله حيواناً يباع ويذبح. وجعل الخطايا خمرًا يُسكِر والضّياءَ إنساناً يُطعن، ثمّ إنّه جعل النّار والعار مزروعاً في الأكباد وفي الوطن، وفي ذلك تشنيع جرائم هؤلاء الحكّام. والضّياء في البيت العشرين مجاز مرسلٌ إذ المعنى "الإسلام" من باب ذكر الجزء وإرادة

الكلّ. وهكذا فقد كان قدر "الإسلام" أن يكون موضعَ جناية بعض أبنائه،[17] وتعبير الشّاعر بالفعل "طعَن" (طعنوا ضياءنا)، فيه دلالة على الأذى الذي لحق تعاليمَ الإسلام من قبل هؤلاء الحكّام العرب.

وهم لم يكتفوا بالطّعن وإنما أجازوا الذّبح أي قتل تعاليم الإسلام "استحلّوا ذبح جلاّنا" والجُلّى في المعجم هي الأمر الشّديد والخَطْب العظيم، نقلها الشّاعر إلى "الإسلام" وأيّ خطْب أعظمُ من إبعاد الإسلام عن حياة الناس بقتل تعاليمه والانغماس في الخطايا !؟ والغريب الذي ينددّ به الغماري، أنّ الأنظمة العربية أصبحت توالي أعداء الأمّة الذين احتلّوا البلاد العربية وزيّفوا التّراث العربيّ وتصادقُهم فتستورد مناهجهم الضّارة لا النافعة: وهؤلاء كانوا أعداء، فأصبحوا ندامى. وليس في النّدامى صلاحٌ إذ هم يسامرون في الخمر لا في الخير!

ب- وفي المجموعة الثّانية خمسة سياقات سياسية كلّها رفض للأنظمة العربية الحاكمة وتنديد وكره لها، سأكتفي تفاديا للإطالة بالتطرّق إلى ثلاثة منها هي - في رأيي- الأوضح والأكثر تعبيراً عن هذا الموقف:

1- في "**مدّي مضاءك**" يندّد الشّاعر بالعروبة الزّائفة التي يتغنّى بها حكّام العرب أمراء وملوكاً ورؤساءَ دول اشتراكية، ويُلْهُون بها الشّعوب التي سحقها الفقر والجهل، يقول: [18]

37- **ونظلُّ نمضغُ همّنا العربيَّ نحياه سرابَا**

38- **كاسًا بها سكرَ "الأميرُ" وعبَّها "الملكُ" احتسابَا**

39- **وعلى الجماهير الموا تِ يديرُها الحزبُ انتخاباَ**

40- **للّيل أوزارُ "الأمي نِ" وإنْ ترهَّبَ أو تصابَا**

فقد شبّه العروبة بالسّراب وفي ذلك دلالة على زيفها وباطلها وأكاذيب الحكّام الذين رفعوا شعارها، يتشدّقون به في خُطبهم وما أكثرها! كما شبّهها بالخمرة، ومدمنوها ليسوا من الرّعاع والسّوقة؛ إنّهم الأمراء والملوك وأمناء الأحزاب، وفي ذلك دلالة على كثرة استعمالهم شعار العروبة في كلّ خطاباتهم يخادعون به العوامّ مستخفّينهم.[19]

ثمّ إنّه يتوعّدهم بقرب ثورة الشّعوب العربية عليهم، فصمتها وإن كان طويلاً سوف يتحوّل إلى نار تَجرِف هؤلاء الحكّام الذين أفسدوا في الأرض فكانت خراباً، ولم تكن لهم سوى خطبِهم القومية الجوفاء التي يحرسون على تزيينها. يقول: [20]

41- **يا سادرونَ على الضّيـا ع وهائمون به ضبابـاَ**

42- **صمتُ الشّعوب وإن تطا ولَ سوف يلتهبُ التهابـاَ**

43- **نـاراً على خَضْـرِ الدّرو ب تدكُّ من شادوا الخرابَا**

44- **من لمْلمُوا مِزَغَ الفخـا رِ ورصّعوا الخُطبَ الكِذابَا**

والثّابت في رفض الشّاعر هذه الأنظمة العربية الحاكمة الفاسدة أنّه يواجهها بالنّظام الإسلاميّ الذي تحاربه، فهو البديل الوحيد الذي سوف يكون حين تثور الشّعوب العربية، فرمز له بـ "خضر الدّروب" وقابل اللون الأخضر بالأحمر، رمز فكرة أعدائه الشّيوعيين – كما سبق – فالخضرة دالّة على الخير والنّماء والجمال في حين تدلّ الحمرة على الدّم والنّار والشّهوانية. وقد أبدع – وهو يتوسّل المجاز– فجعل الأنظمة العربية خراباً والبديل عنها هو إسلامه (خضر الرّوابي) في تضادّ يبرز البديل جميلاً صالحاً، إذ هو ثورة على الفساد والخراب. [21]

2- في "**ألمّ هواك**" خطابٌ موجّهٌ للحكّام العرب الذين يجتهدون في صنع الزّعامة على حساب الجماهير الجوعى ودماء الشّهداء، يقول: [22]

35- **ويـا من يصنعون "اللاّتْ"**

36- **من خبز الضّحايـا**

37- **من دم الشّهـداء**

38- **من جرح المعانـاةْ.**

رمز للزّعامة بالصّنم الجاهليّ "اللاّت" وفي ذلك دلالةٌ على واقع كثير من الحكّام الذي استطاعوا بجبروتهم واستخفاف كثير من أفـراد الشّـعب أن يكوّنوا لأنفسهم هالةً من الهيبة تجعل ضعافَ النّفوس والجهلة يعظمّونهم إلى ما يشبه التّقديس حتى إنّ بعضهم سمّي بـ "معبود الجماهير"! كما فيه دلالـة على بغض الشّاعر هؤلاء "الزّعماء"، فقد شبّههم بصنم ثقيف كانت تعبده في الجاهلية، والصّنم يُضلّ النّاس ولا ينفعهم، فكذلك هؤلاء الحكّام العرب.

3- في "**همُ الآن**" تنديدٌ بالحكّام العرب الذين ارتموْا فـي أحضـان حضارة الغرب متناسين أصالتهم وبداوتهم، مسالمين الشّيوعيين لكنّهم حرب على جيرانهم العرب، يقول:[23]

65- **تحضّرتَ يا أيّها البدويُّ**

66- **تجزّمتَ بين المحيطين**

67- **عبـر الحدود الملغّمة للصديقْ!**

68- **مدجّجةً للشّقيـق!**

69- **وحاملةً غصن زيتونة للرّفيق!!**

70- **تجزّمت بالنّـار للجـارْ**

71- روّيتَ من دمه كلّ ثارْ!

يندّد بالأنظمة العربية جميعها "بين المحيطين"؛ المحيط الأطلسي والهندي في موالاتها أعداءَ الإسلام لكنّهم فيما بينهم أعداء متقاتلون حيث إنّ الحدود بين الدويلات العربية كلّها ألغامٌ وأسلحة ودماء تُسفك بين الإخوة الأعداء، وفي ذلك دلالة على فساد فكرة القومية العربية والتعصّب العروبيّ.

ثالثاً: تبنّي الحلّ الإسلاميّ واستنكار الواقع المرفوض:

لقد أظهر الشّاعر في الموقفين السّابقين رفضه وبغضه لكلّ ما يعادي مبادئ الإسلام وقيمه التي يحيا بها ولها. وموقفه في الرّفض وتحدّي أعداء مذهبه واضح، وهو في رفضه ذاك يعلن بوضوح انتماءه متجرّدا للإسلام يدعو إليه بديلاً عن كلّ المذاهب البشرية وفي غيره من الأنظمة تستحيل الحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية الحقّة. (24)

وقد بيّن التقصّي أنّ موقف تبنّي الحلّ الإسلاميّ واستنكار الواقع المفروض مسجّل في أكثر من عشرين قصيدة من المدوّنة. وحتّى لا أطيل، فإنّي مكتفٍ – فيما يأتي– بتتبّع هذا الموقف في مقاطع من قصائد المجموعة الأولى وفي أخرى من الثّانية.

أ- **في المجموعة الأولى** أربعةَ عشر سياقاً سياسيا تبرز كلّها انتماء الشّاعر الإسلامي وتمسّكه بالشّريعة بديلاً عن أنظمة البشر، أذكر منها بعضها:

1- لعلّ أقوى ما يلقانا في هذا الموقف مقطعٌ من " **لو قرأت كتابي**": يخاطب فيه أصحاب المذاهب البشرية الضالّة داعياً إيّاهم إلى القرآن الكريم، ففيه حلّ لكلّ مشاكل العصر: (25)

16- أيّـُها الجاهلون .. ما أتفهَ العقلَ إذا صدّ عن كتابي وولّى

17- **أيّها الضّاربون في اللّيل ..واهًا كمْ سقاكم أســاهُ ..ناراً ومُهْلاَ**

18- **فــي كتابي يخضرُّ ألفُ ضيــاء يورقُ الطُّهرُ في محيّاهُ حقلاَ**

19- **وبَنَيتُمْ ... لكنْ هدمتــم نفوســاً كم سقتها شريعةُ اللهِ نُبْــــلاَ**

20- **في يدي مُصْحفي.. اقرأوا تجدُوا فيه لشتّى مشاكل العصرِ حلاَّ**

والطّريف أنّه أضاف القرآن الكريم إليه في هذا المقطع ثلاث مــرّات (كتابي، كتابي، مصحفي) إضافةَ تملّك وإلحاق. وفي هذا دلالــة علــى قــوّة الانتماء إلى إسلامه الذي تركته البرية فضلّت وشــقت، ولــيس لهــا إلاّ أن تجرّب فتطّلع على تعاليم الإسلام لتجد حلول مشكلات العصر المختلفة.

2- وفي القصيدة نفسها مقطع يخاطب فيه بابلو نيرودا الشّاعر الثّائر غير أنّ ثورته الشيوعية ضالّة، وكأنّه يأسف له، لأنّه لم يطّلع على حقيقة الإسلام وإلاّ لكانت ثورته محمودة، لأنّها في سبيل العدل والحقّ. يقول: [26]

12- **لو قرأت القرآنَ ما كنتَ إلاّ ثائراً فــي الــــوجود يــنشدُ عــدْلاَ**

13- **فكتابي العظيمُ.. ينبــــوعُ سرّ ضــلَّ من يجهــلُ الحقيقةَ ضلاَّ**

14- **مِلؤهُ العدلُ.. لا صراعٌ مريــــرٌ جلَّ في الخافقينَ .. حكماً .. جلاَّ**

ويظهر تبنّي الشّاعر الحلّ الإسلاميّ في البيت الأخير بتفضيله علــى كلّ نظام في العالم، إنّه نظامٌ ملؤه العدل وغيره - وأشــار إلــى الشّــيوعية بعبارة "صراع مرير"- ضلالٌ وجور.

3- وفي "**عندما توقظني الذّكرى**"، وبنزعة صوفية ألمحتُ إليها سابقاً عبّر الغماري عن رفضه الطّروحَ غير الإسلامية عروبيةً تلفيقية أو شيوعية ملحدة، متشبّعاً بزاد الإيمان مؤمناً بحتمية الانتصار على قوى الظّلام، فالغلبة لخضرائه. [27] وانظرْ إلى قوله: [28]

37- **إلهي: إنّني سفـــرٌ ووجهك في الهــوى زادُ**

38- **وإنّي الرّفضُ مهمــا لــجّ إرغـــاءٌ وإزبــادُ**

39- **ونارك في دمي ألــمٌ بـــهِ تخْضرُّ أبعـــــادُ**

40- **ويُصلب يا صدى "النّا عين" تلفيـــقٌ وإلحـــادُ**

41- **وأفنـــى فيــك يا ألمي ليـــصحوَ فيــك ميــلادُ**

42- **لنـــا يا ربُ في مُقَل الشْ شُموس الخضْر ميعـــادُ**

تظهر الأبيات إيماناً قويّا بالقضيّة وقد وظف الشّاعر لفظــة "الفنـــاء" ذات الدّلالة الصّوفية ليوضّح منتهى وفائه لإسلامه وتطلّعه إلى فجر الإنسانية في مستقبلها السّعيد، والميعاد قريبٌ. وفي البيت الثّاني إلحاحّ على الــرّفض رغم المحن، ممّا يدلّ على ثباته وانتصاره في هذا الصّراع ؛ فتخضرّ الأبعاد بتعاليم الإسلام وتكون نهايةُ الملفّقين والملاحدة.[29]

ب- **وفي المجموعة الثّانية** نلفي خمسة سياقات سياسية تشفّ عــن موقف الغماريّ الواضح في ثورته على واقع مرّ يرفضه بحدّةٍ ويحذّر مــن شرّه المستطير على الشّعوب وعلى الإنسانية جمعاء، محيلاً إلى البديل عــن هذا النّظام المتعفّن الغريب. وما هو إلاّ الشّريعة الإسلامية السّمحة.

وقد ركب الشّاعر في هذه المحطّات - كما في سابقاتها- مركباً رومانسيا متصوّفاً. و سأقف- إيجازًا- عند اثنتين منها:

1- في "**يا حادي الغول**" إعلانٌ صريح عن تبنّي الحلّ الإسلاميّ واستنكار ورفض الجاهليات المستوردة، يقول: [30]

6- **هي الحبيبةُ.. عينُ الشمسِ واحتُها إنْ يسكُنِ القومَ أوثانٌ مِنَ الصُّورِ**

7- **تسكّعتْ في شطوط الوهْم همّتُهم فأصبحوا شذَرًا يهوي على مذَرِ**

8- معربِدون وأكوابُ الجحيم على شفاههم يغْتلي بالخمرةِ النُكُرِ

9- معلّبون بضاعاتٍ مورّدةً مخدّرون بإغراء المدى الأشرِ

عبّر بكلمة "الحبيبة" في البيت الأوّل على مدى تمسّكه وارتباطه العاطفيّ (الروحيّ) باختياره الإسلاميّ. والجملة "هي الحبيبة" على بساطتها وإشعاعها الرّومانسيّ عنوانٌ على اتّجاه الغماري السياسيّ. إذ الحلول المستوردة كلّها وهم وجاهلية، وقد شنّع على أعدائه سوء اختيارهم، فقد فضّلوا الباطل على الحقّ فتاهوا وضلّوا؛ وصدّوا عن نور الشّمس (نور الإسلام) فتملّكتهم أفكارٌ وثنية، فكان الضّياع والخسران المبين (أصبحوا شذرًا يهوي على مذر).

وقد اتكأ الشّاعر على الاستعارة والكناية في البيت السّابع حيث شخّص " الهمّة " و" الوهم "، فجعل الأولى إنسانا يتسكّع، وفي هذا دلالة على زيغ الفكر والضّياع، وجعل الثّانية بحرًا. وهي صورة فنّية نقلت المعنويّ إلى المحسوس. وهو يرى أعداء فكرته مخدّرين، وأيّ خير في نظام يضلّ فيه النّاس ويخسرن الدّنيا والآخرة ؟!

ودلالة المقطع كلّه: إصابة الشّاعر في تبنيه النّظام الإسلاميّ وخسران خصومه بتبنّيهم أفكارًا غربية غريبة فاسدة مُفسدة.

2- في "**أضغاث حلم**" ما يشبه السياق السّابق، فقد ركب متناً رومانسيا صوفيا ليعلن عن شدّة تمسّكه باختياره، لا يحيد عنه. فالإسلام هو وجوده وسرّ حياته. هذا السرّ الذي عمى عنه أعداءُ فكرته فضاعوا في سراب المذاهب البشرية، يقول: [31]

15- تلمّستُ في عطرِك الأبديّ وجودي وإن يعشُ عنكِ الشُّداةْ

16- لئن يرفضوا فيك سرّ الحياة فأسرارُكِ الخضرُ كونٌ وذاتْ

17- ومن دون كرمكِ لا أرتوي ولا خطرتْ في دمي الأغنياتْ

18- شرابُ الأُلى هاجروكِ سرابٌ يضيع النّدامى به والسُّقـــاةْ

إنّ الكلمات (عطر، أسرار، كون، ذات، أرتوي، شراب، ندامى، سقاة) من معجم المتصوّفة، والعطر الأبديّ رمزٌ لصلاح الشّريعة الإسلامية لكلّ الأزمنة وكذا "الأسرار الخضر" فيها دلالة على النّماء، والارتواء من كرم العقيدة فيه دلالة على تمكّنها من قلب الشّاعر، إذ هي سارية في كيانه كلّه.

رابعاً: رفض سياسة التّغريب والتّنديد بأعداء الإسلام التّاريخيين

يشيد الغماري في أكثر أشعاره بالفكرة الإسلامية وهو في ذلك عاتي الرّفض لسياسات الحكّام العرب التي استوردوا أكثرها من الغرب أعدى أعداء المسلمين التاريخيين، الذين يضمرون لهم كلّ حقد وكراهية لما كان بينهم من صراع في القرون الوسطى، كانت الغلبة فيه في أكثر المواجهات للمسلمين. أمّا الآن وقد انقلبت الموازين- إذ هم أصحاب الحضارة الغالبة- فهم يعملون بكلّ ما أوتوا من قوّة على استلحاق البلاد العربية كلّها وغزوها فكريّاً وثقافيا، عاملين على محو كلّ مظاهر الانتماء الحضاريّ الإسلاميّ منها، وما على الشّاعر إلاّ رفض ذلك الغزو الثقافي وتطويقه وليس له في ذلك إلا الكلمة يدافع بها عن قيمه التي التزم بها. [32]

وقد أفضى التقصّي إلى أنّ موقف الغماري في رفضه سياسة التّغريب وتنديده بأعداء الإسلام التاريخيين، متبلورٌ في خمسة سياقات في المجموعتين، نتابع منها ثلاثةً فيما يأتي:

1- في "**هم الآن**" مقطعان يعبّران عن رفض الاستغراب وبخاصّة هذا الغزو الثقافيّ المتمثّل في تقليد بعض قشور ثقافة الغرب، يقول في المقطع الأول:[33]

25- يا أيّها المتحضّرُ ليس التحضّر كأسَ طلاءِ!

26- وغانيةً تعقصُ الشِّعرَ مستشْزراً للعلاءْ !

27- تحضّرتَ يا أيّها البـدويُّ!

28- وكان التحضّرُ في زمني موضةَ الأدعياءْ!

31- طُبـولاً من الزَّار والزُّورِ!

32- جيشاً من الكلماتِ الخواءْ !

هو يعيب على المستلبين من العرب سوءَ فهمهم الحضارة والتحضّر عادّين تقليد الغرب في الاهتمام بالمظهر والزّينة ومـا يجـدّ مـن تقليعـات (موضات) من التحضّر، وما هو منه إنّما هو تقليد مسطّح أعمى!

وفي المقطع الثّاني رفضٌ واضحٌ للحرب على الإسلام والارتماء في أحضان الغرب واليهود، وهو ما يفعله كثير من حكام العرب بائعين قضـايا شعوبهم، زاعمين أنّ الخير في التحضّر على النّمط الغربيّ، يقول: [34]

5- وقلنا لسمْرتِنا: ارتحلـي ! فكمْ طابَ في الشَّقرةِ الانتخابْ !

6- ولو نستطيع حملنا الشَّمـالَ إلى دورنا تحفاً لا تُشـابْ !

7- ولو نستطيع حملنا الصَّليبَ وما فيه -لولا التزمّتُ- عابْ !

8- ونجمةُ داودَ .. تُزْجى لنـا وباسمِ الحضارةِ ينمُو استلابْ !

9- وتأبى علينا الرّموزُ الوَضاءُ ويرفضُ أن نُسترَقَّ الكتـابْ !

في البيت الأوّل من هذا المقطع رمز الشّاعر للإسلام بـ "السّـمرة" وللمذاهب الغربية بـ "الشّقرة" وهو بصدد التّشـنيع علـى الحكّـام العـرب تفضيلهم قوانين الغرب على الشّريعة الإسلامية. وقد تصرّف فـي "سـمراء" و"شقراء" مؤنث "أسمر" و"أشقر" على التّوالي، واستبدل تاء التأنيث بـالهمزة

ولعلّ ذلك مردّه ضرورة الوزن (والبيت من المتقارب) ثمّ هو مندّد بصنيعهم كافرٌ بهذه الخيانة، إذ الإسلام بتعاليمه يأبى الاستذلال والهوان.

2- في "**مناجيات**" يظهر رفض الشّاعر الطّروح غير الإسلامية مقابلاً بين متاعب النّظام المستورد من الغرب والشّرق، وخير الإسلام يقول: (35)

29- **إذا غرَّبوا أشرقت بالوعود وإن صوَّحوا أزهرت في الموات**ْ

30- **وإن باركوا الفقرَ باسم الفقير أفاءت علـــى الجائعين الزّكـــاة**

31- **وإن ثوّروا الأرضَ حتّى تخلّت فمن حبّنا السُّحبُ الممطِـــرات**ْ

32- **هو الحبُّ يجمع ما فرقّـــوه وإن أبرقتْ بالوعيدِ "شتـــــــات"**

فهذا المقطع يشفُّ عـــن ردّ الشّـــاعر "التّجـــارب" السياســـية غيـــر الإسلامية. وقد اعتمد فيه أساليب شرط أربعة، جملة الشّـــرط فيهـــا أفعـــال خصوم الشّاعر. وقد فضّل إضمارهم على التّصـــريح بأســـمائهم (غرّبـــوا، باركوا، ثوّروا) بجماعة الغائبين "هم"، دلالةً على استهانته واستصغاره شـــأن الحكّام العرب، وجواب الشّرط: خير الشّريعة الإسلامية (أشرقت، أزهـــرت، أفاءت، أمطرتْ) وهي كلّها دالة على الخير والجمال والنّماء في مقابل فســـاد الحلول المستوردة، سواء أكانت غربية (غرّبوا) أم شرقية شيوعية (بـــاركوا الفقر، ثوّروا الأرض)، فهي حلول غريبة مفرّقة لا بديل عنها سوى الإســـلام في عدالته الربّانية التي تجمع القلوب على الأعمال الصّالحة.

والطّريف أنّه وظّف كلمة "**حبّ**" مجازًا مرْسلا عن الإسلام: (من حبّنا السّحب الممطرات، هو الحبّ يجمع ما فرّقوه)، علاقته الجزئية إذ المقصـــود الشّريعة وقيمها كثيرة منها الحبّ هو دلالة على فكرة المتكلّم (الشّاعر). (36)

3- وفي "**لن تموت الحقيقة**" سياقٌ سياسيّ صوفيّ النّزوع، فيه تحدّ لأعداء الإسلام، وأملٌ عريض في قرب تحقّق النّظام الإسلاميّ الذي ينشر الخير في كلّ الأوطان، يقول: (37)

9- أجلْ.. أيّها الضّوءُ ما متُّ لكنْ غدًا منك تسكرُ أوتاريَهْ

10- غداً أيّها الضّائعون الحيارى ستُزهر بالحبّ أوطانيهْ

11- غداً أيّها الحافرون القبورَ ليدفن حبّي.. وأحلاميهْ

12- ستسكر بالله أزهارُ عشقي ويهوى التّسابيحَ وُجدانيهْ

يخاطب الشّاعر عقيدته بمجاز مرسل(38) " الضّوء " وعلاقته الجزئية والضّوء يبدّد الظلمة، وهذا شأن تعاليم الإسلام فهي تنير درب السّالكين فلا يخبطوا خبْط عشواء، ولا يضلّوا ويضيعوا حائرين. وفي "أجلْ، ما متّ" دلالةٌ على الإصرار والثّبات على الموقف. وقد استعان بكثير من ألفاظ المتصوّفة في هذا المقطع (تسكر،الحبّ، عشق، تسابيح، يهوى). وكلّها تشعّ بمعنى السّعادة والانتشاء وصدق الانتماء. وفي لفظة "**غدًا**" المكرورة ثلاث مرّات، وفي المضارع المنفّس بالسّين في "**ستزهر**" و"**ستسكر**" دلالةٌ على قرب تحقّق المبتغى.

ب- في "**بوح في موسم الأسرار**": نجد ستّة مقاطع أسلوبها هو أسلوب المقاطع السّابقة؛ رومانسية طعّمها الشّاعر بألفاظ من قاموس السّالكين المتصوّفة، عبّر بها عن ثقته الكبيرة في تغيّر الأوضاع السياسية في العالم الإسلاميّ – على الأقلّ- وتكون الغلبة في الصّراع القائم -هنا وهناك- للفكرة الإسلامية. وسأكتفي – إيجازا- بتتبّع بعض هذه المقاطع.

1- ففي "**ألمّ هواك**" والمخاطَبة في عنوان القصيدة وفي بعض سطورها هي العقيدة الإسلامية التي ملكت على الشّاعر وجدانه إليها، فهو

يأمل في جهاد إسلامي يقوده مجاهدٌ يستلهم قتاله من مجاهدي "صفّين" [39] فتنتهي مأساة المسلمين بتحطيمه صخرة الأنظمة المتردّية فيكون الرّبيع ويتفيّأ النّاس ظلال الشّريعة الإسلامية، إذ يقول: [40]

11- **ألمّ هواكِ..**

12- **أقرأه صهيلاً أخضرَ القسماتِ**

13- **ومُهْرًا**

14- **فارسًا يمتدُّ من "صفّينَ"**

15- **يحطِمُ صخرةَ المأساةِ**

16- **يُذيبُ الحاضر الصّخريَّ أنفاساً ربيعية !**

والمجاز الرّومانسي طاغٍ على هذا المقطع وعلى غيره -كما سلف- وهذا من اختيارات الغماري الفنّية. إذ تجاوزَ الواقع إلى ما وراءه، فتكون الدّلالة الرّمزية جمالا أخّاذاً وأكثر تهويلاً من الدّلالة المعجمية البسيطة[41]. فاللّوحة التي تقدّمها أسطر هذا المقطع يمكن تلخيصُها في مشهد فارس مجاهد انطلق من معركة صفّين وتخطّى حدود الزّمان - وهو قرون- ليهزم أعداء الإسلام ويعيد المسلمين إلى شريعتهم المبعَدة عن واقعهم المعيش.

2- وفي "**مدّي مضاءك**" وبالأسلوب الرّومانسي المتصوّف ذاته، يبارك الشّاعر جهاد الأفغان، الذين رفضوا الواقع الشّيوعيّ الذي أراد الاتّحاد السوفيتي فرضه عليهم في بداية الثّمانينيات، بعد أن غزا أفغانستان أواخر ديسمبر 1979،[42] وجاهدوا على قلّة عدّتهم وعتادهم، فكان النّصر حليفَهم بعد ذلك بسنوات في حرب ضروس، يقول:[43]

19- **أفغانُ: في عينيكِ فاصلتي يهيم بها انتشـــــاءُ**

20- رقّت.. فكان الوعد يُمـــ طرُ في المواسم والنّماءُ

21- أنا عاشق.. نجواك فـــي سفري الأغاريدُ الوِضاءُ

23- يا أنتِ يا فـــرسَ الفتـــو حِ .. وكم يَعَزُّ الانتمـــاءُ

24- بفتـــى "ثقيـــف" هِمْـــتِ لا "بالدبّ" دعْواه هـــواءُ

شخّص الشّاعر كثيرًا من المعنويات على سنّة الرّومانسيين، لتظهـــر محسوسةً يلفّها الخيال والتّمثيل. ففـــي البيـــت الأوّل، كنّـــى عـــن الإســـلام بـــ "فاصلتي" وشبّه " الانتشاء "- وهو أمر معنوي- بإنسان يهيم، كناية عـــن شدّة حبّه إسلامَه. وفي البيت العشرين شبّه " الوعد " بســـحاب يمطـــر فـــي المواسم وفي ذلك دلالة على الخير والمباركة؛ إذ المطر رمزٌ للخير وســـببٌ فيه. فالماء سبب الحياة. و" **الأغاريد** " في البيت بعده، كناية عـــن الإســـلام كذلك. " ويلقانا في البيت الأخير " **فتى ثقيف** " كناية عن العروبة والإســـلام و" **الدبّ** " رمز للرّوس. فأفغانستان تحبّ الإسلام وترفض الشّـــيوعية التـــي شبّهها بالهواء "دعواه هواء". وألفاظ التصوّف في الأبيـــات تشـــعّ بـــدلالات معنوية لا يدركها إلاّ من كان في عداد السّالكين إلى الله بحمل أنفسهم علـــى المشاقّ وعلى عزائم الأمور.[44]

3- وفي المقطع الأخير مـــن القصـــيدة ذاتهـــا والمخاطـــب دائمـــا "أفغانستان" عبّر الشّاعر عن تشجيعه وتحريضه المسلمين هناك على القتـــال، فلا يرهبوا دعاوى الشّيوعيين الرّامية إلى تثبيط عزائمهم، وهو - كما هـــو الشّأن في المقطع السّابق وفي جلّ القصائد- ينحو نحوًا رومانسيا متصـــوّفا، يقـــول:[45]

25- لا ترهبي أفغانُ من دعْ وى يضيق بها الفضاء !

53- مـــدّي مضاءك يا جيـــا دَ الله يزدهرِ المضـــاءُ!

54- ولأنتِ في سفر المعا ناةِ المواجدُ والعَنـــاءُ !

اعتمد أسلوبين إنشائيين: نهيًا وأمرًا (لا ترهبي، مـدّي مضـاءك)، وغرضهما الحضّ، فهو وإن كان بعيدًا عن أفغانستان جسـما، قريـبٌ مـن المجاهدين هناك قلباً، فلم يتأخّر عـنهم بواجبـه فـي النّصـح والتّشـجيع. كما وظّف في البيت الأخير ألفاظاً من معجم المتصـوّفة: (سـفر، معانـاة، مواجد، عناء). وفيها دلالات التّعب والمشقّة. وكلّ ذلك يهون إذا كان القصد طاعة الله والتقرّب إليه، والجهاد في سبيله أسمى العبادات كما هو معلوم.

خامساً: التّضامن مع قضايـا المسلمين:

لا يؤمن الشّاعر-كما رأينا- بالولاء للغرب أو للشّرق، فلا صـداقة معهما. إذ هما عدوّان للأمّة الإسلامية يحاربان العقيـدة ويسـرقان أمـوال الشّعوب المستضعفة، ولاشكّ أنّه صادق الموقف من حيث إنّه يدافع عن قيمه التي التزم بها تحت راية الإسلام، خضرائه التي عقد عليهـا جنانـه. ومـن مبادئ خضرائه السّامية: الأخوّة بين المسلمين أينما كانوا ومهمـا تباعـدت بينهم المسافات، هذه الأخوة نادى بها الإسلام فريضة ترتقـي إلـى درجـة العقيدة.[46] وقد بيّنت الدّراسة أنّ الغماريّ متعاطفٌ متضامن مع المسـلمين أينما وجدوا في أنحاء العالم المختلفة. ويزداد هذا التّضامن كلّما تعلّق الأمـر بالأقليّات المسلمة التي تعيش القهر هنا وهناك: في الفلبّين وفي الهنـد وفـي بخارى وفي غيرها من بلدان العالم الإسلاميّ.

وقد أبرز التقصّي أنّ هذا الموقف السياسيّ أكثر تجلّياً في مقاطع ستّة من المجموعة الأولى وثلاثة أخرى من المجموعة الثّانية، سـأعرض إلـى أهمّها فيما يأتـي:

أ- في "أسرار الغربة":

1- في "**بين قيس وليلى**" تعاطف وتألّم الشّاعر لما يتعرّض له المسلمون في الفلبّين من اضطهاد، حيث عمدت الحكومة المسيحية إلى اقتحام مناطق المسلمين في جنوب البلاد وإحراق ديارهم، وهدم المساجد وانتهاك الأعراض، حينها قام المسلمون فأنشؤوا جيشاً شعبياً للجهاد وتحرير الأسرى وصدّ العدوان الصّليبيّ، يقول: [47]

38- **مَدى العقيدة.. لي حدٌّ ولي وطنٌ حبّي حدودي..وما تهوى مروءاتي**
39- **أيسكُر الوردُ في أرضي.. فألثُمه وفي"الفلبين"..يُدمي الرّعبُ زهْراتي**
40-**هناك..في الغاب نزّت مُهجتي بدمي فمن يضمّد يا قومي جراحاتي**
42- **ليلى الأسيرةُ..يا أحبابُ تنشُدكم هناك..حيث توارى ضوءُ كِلْماتي**
43- **اللهَ الله في ليلى..أتصلُبُها ريحُ الصّليب.. وما تصحو بطولاتي؟**

يرى الشّاعر أنّ محنة المسلمين في الفلّبين – وهم مستضَعفون- هي قضيّة المسلمين جميعًا، إذ لا حدود بينهم. وهو يُظهر تعاطفه وشدّة تألّمه لما حدث لهم، فقد أصيب بجراحات في قلبه حزناً (نزّت مهجتي، من يضمّد جراحاتي) وهو يتمنّى أن يكون معهم في مصابهم ليكون ناراً تشوي العِدى. وفي الأبيات الأخيرة كنّى عن الإسلام بـ " ليلى " مستنهضًا همم المسلمين لنصرة إخوانهم في الفلبّين.

ثمّ هو يحرّضهم على ذلك بأسلوب الإغراء في البيت الثّالث والأربعين (**اللهَ الله في ليلى**) ويُنكر عليهم أن يرضوا بالعدوان المسيحيّ على إخوانهم ولا تتحرّك فيهم النّخوة والضّمير. والاستفهام في البيت "**أتصلبُها ريح الصّليب**..." غير حقيقي، خرج إلى غرض الإنكار؛[48] والاستفهام في البيت الأربعين، " **فمن يضمّد جراحاتي**" يفيد التفجّع.

2- يظهر الشّاعر في "**موّال عاشق**" حبّه المسلمين المضطهدين في الهند، وهو يناجي أبا الكلام أزاد المفكّر الإسلامي الكبير، رمز التحدّي والجهاد في ذكرى وفاته التّاسعة عشرة وقد كان ينافح عن الإسلام ويردّ عنه كيد البوذيين والهندوس والمسيحيين، يقول: (49)

28- **الهندُ تعلمُ يا سليلَ النّـ ورِ أنّكَ ساعداهـا**

29- **الهنـدُ تعلمُ مَن أزادُ إذا ألمّ بها عِداهـا**

31- **كانوا المسيحَ ..وماهُمُ إلاّ المكَبّـُون الجباهـا**

32- **وتقمّصوا "بوذا" الحكيـ مَ ! وفي الدُّجى تاهوا وتاها**

33- **كانوا الخنوعَ وكنتَ في لّهبِ الورودِ لـها فتاهـا**

كنّى بـ "سليل النّور" في البيت الأوّل عن الإسلام: "يا مسلم" وفي الأبيات تعدادٌ لبعض مناقب "أبي الكلام" ممّا يشبه الرّثاء في الشعر القديم: استغلّ الفرصة لينعى على المسيحيين والبوذيين ضلالهم وذلّهم: (مكبّو الجباه، تقمّصوا بوذا، كانوا الخنوع). ولم يخْلُ هذا المقطع من المجاز الرّومانسي المرسل، ففي البيت الثّاني والثّلاثين: " **في الدّجى تاهوا وتاها** " شخّص الدّيانة البوذية فجعلها دجى استعارة تصريحية وفي ذلك دلالة على باطل عقيدتهم، إذ لا خير في عقيدة تُضلّ أتباعها فيتيهون.

والمجاز المرسل في البيتين الأوّلين: **الهند تعلم أنّك ساعداها، الهند تعلم من أزاد**، فقد عنى سكّان الهند من المسلمين، والعلاقة مكانية إذ فيها يعيشون. واللاّفتُ أنّ الشّاعر بالغ وهوّل الأمر، فجعل أبا الكلام ساعدي الهنود جميعا، والحال أنّ المسلمين -كما أسلفت- أقلية في الهند لا يتعدّى تعدادُهم: 12% من مجموع السكّان،(50) لكنّ الموقف يختلف من حيث البواعث النّفسية. فإذا كان المسلمون أقليةً في الهند، فإنّهم في مشاعر الشّاعر

كلّ الهند، ذلك أنّ عقيدتهم هي الحقّ، وما سواها من هندوسية وبوذية ومسيحية وغيرها زيفٌ وباطل وبهتان!

3- في "**اطمئنّي أمّاه**" بيتٌ أظهر فيه الغماري حبّه وتضامن المسلمين الجزائريين مع إخوانهم في "بخارى": عاصمة أوزبكستان،[51] حيث أكثر السكّان فيها مسلمون لكنّهم مبتلون بنظام شيوعيّ تابع للاتحاد السّوفيتي يضطهدهم ويحارب عقيدتهم، يقول: [52]

15- **في"بخارَى"..أختِ الجزائر في الـ حبّ تناجي صوفيَّها العبقريَّا**

عبّر عن موقفه التّضامني هذا بمسحة صوفية، و"**الحبّ**" في البيت هو العقيدة الإسلامية والأخوّة، وأخوّة الدّين " الفريضة " وقد لمّح الشّاعر إلى عراقه "بخارى" في الإسلام بـ "صوفيّها العبقريّ" كناية عن الإمام البخاريّ رضي الله عنه، صاحب أوّل كتاب في الحديث "**صحيح البخاري**" جمع فيه أربعة آلاف حديث صحيح (ت: 256هـ)[53] وفي البيت دلالة سياسية أخرى وهي اهتمام الشّاعر بهموم المسلمين أينما كانوا ومهما اختلفت أجناسهم فينجو من السّقوط في مهاوي النّزعة العرقية الوطنية أو القومية الضيّقة. [54]

4- في "**تجوى إلى إقبال**": عبّر عن عميق تأثّره بمأساة المسلمين في فلسطين السليبة، متأسّفا لانهزام العرب وانشغالهم عن القضية بخطب ودواوين، قولاً ليس بعده عمل يقول: [55]

22- **مزارعُ الطّهر..أمست بعضَ قصّتنا من الهزائمَ..نُهديها الدّواوينَا**

23- **وقبلها..سُرقتْ في اللّيلِ أُغنيتي ماذا فعلنا؟ ابتلعناها سكاكينا**

24- **تَظلّ تحفِرُ في الأعماق..في كبدي تحزُّ في رئتي ذكرى فِلسطينا**

كنّى الغماري عن فلسطين بمزارع الطّهر إذ هي أرض النبوّات، بقدسها الشّريف، و"الهزائم" في البيت الأوّل هي مع العدوّ الصّهيوني الذي سرق أرض فلسطين في غفلة من المسلمين المستضعفين هنا وهناك، آنذاك **(1948)**. فكانت الهزيمة الأولى ثم تلتها أخرى. والاستفهام في قوله: (ماذا فعلنا؟!)، فيه دلالة على التأسّف والإنكار والنّفي. والعبارات الأخيرة تشعّ بدلالات الانفعال والحزن، (تحفر في الأعماق.. في كبدي، تحزّ في رئتي). فروحه وعواطفه كلّها جريحة لعار المسلمين في سكوتهم على جرائم الصّهاينة المستمرّة في فلسطين.

ب- في "بوح في موسم الأسرار" مقاطع قليلة تشابهت سياقاتها التي تظهر تضامنَ الشّاعر مع قضايا المسلمين في العالم، وحتّى لا أطيل فأمَلّ، فإنّي مكتفٍ بتتبّع مقطع من "**وجه ليلى**" يبرز منتهى تعاطفه مع المسلمين الأفغان تحت الاحتلال السوفيتي، مصرّحا بتمكّن محنتهم في نفسه، فملكت عليه مشاعره، فإذا قصائده تلعن هؤلاء الغزاة الكفرة، يقول: (56)

34- **يصبّ شواظاً في محاجرِ قريتي فيُذبح في جفن الحقول الترنُّم!**

35- **حملتكِ ملءَ القلب ملء وجيبه حنيناً وما أنفكُّ أشدو وأنظمُ**

36- **يذوب وجودي في هواكِ قصيدة ويعذُب فنّي في هواك..ويكرمُ**

37- **وألعن من يغتال نجمكِ عاشقاً وكم باسمكِ القدْسيِّ تُغتالُ أنجمُ**

يخاطب الشّاعر "خضراءه" - وهي كما سبق رمزٌ للإسلام- معلناً أنّه يحمل عقيدته التي تمكّنت من قلبه غاية التمكّن، فحاله حال المتصوّفة: دائب في حبّه الله. وعقيدته هي التي جعلته يتألّم لمبتلى الأفغان، الذين اعتدى الرّوس- ورمز لهم بـ " الدبّ الجليدي "- على حرماتهم وهدموا قراهم.

فما أجدرهم بلعنة الشّاعر التي هي لعنة "خضراء" متحدّية إرهـاب الكفـرة الذين يريدون إطفاء نور الله، والله متمٌّ نوره !

رأينا في الموقف السّابق، تعاطف الشّاعر مع قضايا المسلمين في كلّ أنحاء العالم، إذ هم أخوته وإن تباعدت الدّيار واختلفت الأجنـاس واللّغـات والألوان. والإسلام عنده يتجاوز الحدود القطرية والإقليمية والقارّية؛ تشـعر وأنت تقرأ أشعاره أنّه إنسان لا ينتمي إلى أرض مـا وإنّمـا منتمـاه أرض الإسلام، هو في القدس وفي الهند وفي الفلبّين وبخارى وفي باكستان..."[57]

وفيما يأتي جدول المواقف السياسية الخمسة:

رقم	الموقف السياسـيّ:	تواتره فـي المجموعة الأولى:	تواتره فـي المجموعة الثّانية:	نسبة تواتره:
01	تحدّي الأعداء والتّنديد بالشّيوعية.	06 مرّات.	مرّتان.	% 11.59
02	رفض الأنظمة العربية الحاكمة.	04 مرّات.	05 مرّات.	% 13.04
03	تبنّي الحل الإسلامي واستنكار الواقع المرفوض.	مرّة واحدة.	04 مرّات.	% 07.27
04	رفض سياسة التغريب والتّنديد بأعداء الإسلام التّاريخيين.	15 مرّة.	06 مرّات.	%30.43
05	التّضامن مع قضايا المسلمين في العالم.	08 مرّات.	مرّة واحدة.	% 13.04

يظهر هذا الجدول أنّ نسبة المواقف الأوّل والرّابع والخامس 56 % أي ما يزيد عن نصف مجموع مواقف المدوّنة، وفي ذلك دلالةٌ على مـدى إيمان الشّاعر بفكرته الإسلامية التي هو داعٍ إليها، ولعلّ ذلك مردّه إلـى أنّ الشّاعر صاحب رسالة عالمية، والوطنيـة والقوميـة بمفهومهمـا الضـيّق المعروف، ممّا يرفضه، غير متنكّر لأصله العربيّ ووطنه الجزائـر، لكنّـه مشغول بغُربة الإسلام عن حياته وعن حياة النّاس العامّة، ويهمّه أن تنتهـي هذه الغُربة وترتفع الرّاية الخضراء في شتّى مناطق العالم، فتسعد البشريّة.

وما يعكسه هذا الجدول كذلك، أنّ الغماري شجاع الرأي جريء في تسمية الأشياء بأسمائها، واضحُ المواقف والآراء والانتماء. ويمكننا تلخيصُ وجمع مضامين المواقف السّابقة في
محور واحد في ثنائية متضادّة: حاضرٌ تعسٌ مفروضٌ يثور عليه الشاعر ويرفضه، وآتٍ سعيدٌ يكافح لأجله ويدعو إليه.

الإحالات وثبت المراجع:

*- الشّاعر الدّكتور: **مصطفى محمّد الغُماريّ** من مواليد سور الغزلان عام: 1948، خريج جامعة الجزائر. أستاذ " اللّغة العربية وآدابها "بمتخرّجه، ثمّ بجامعة البليدة فبجامعة غرداية في السّنوات الأخيرة. اتجاهه الفنّي رومانسيّ إسلاميّ له مجموعات شعرية كثيرة أشهرها: " أسرار الغربة "، " نقش على ذاكرة الزّمن " " قصائد مجاهدة "، "خضراء تشرق من طهران"، " ألمٌ وثورة "، " قراءة في زمن الجهاد"، "الفرحة الخضراء" "عرسٌ في مأتم الحجّاج"، "وا إسلاماه "، "براءة "، " الهجرتان "، و"بوحٌ في موسم الأسرار". وله أعمالٌ أخرى نثريةٌ في النّقد والتّحقيق.

- **<u>المدوّنة</u>**: " **أسرار الغربة** "، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط:2، 1982. و" **بوح في موسم الأسرار**"، لا فوميك، الجزائر، ط:1، 1985.

1- ممّا ورد في مفهوم الموقف: "... ومعناه علاقة الكائن الحيّ ببيئته وبالآخرين في وقت ومكان محدّدين، وبهذه العلاقة يكشف الإنسان عما يحيط به من أشياء ومخلوقات بوصفها عوائق في سبيل حريته، ولا سبيل لاتّخاذ موقف إلا بمشروع يقوم به الفرد مرتبطاً بما يحيط به من عوامل، يتجاوزها بمشروعه إلى غاية يحاول بها التّعبير من حالته الحاضرة ..."

ينظر: "**الموقف الأدبـــي**"، محمّد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 1977، ص: 119.

2- ينظر: "**أسرار الغربة**" دراسةً وتقييماً من تقديم د.محمّد ناصر"أسرار الغربة"، ص: 12-16.

3- المصدر نفسه، "**ثورة الإيمان**"، ص: 31.

4- جملة شهيرة لكارل ماركس K.Marx وردت في مقال له بعنوان: "**نحو نقد نظريات الحقّ، لدى هيجل**"، نشره في الحولية الفرنكو ألمانية عام: 1944، ينظر:

H.B. Acton: Ce que Marx a vraiment dit, traduit de l'anglais par Anne Laurens, collection Marabout Université, presses de Marabout S.A. Verriers (Belgique) 1973, p: 37.

[5]- أسرار الغربة، " **ثورة الإيمان** "، ص: 32، 32.

[6]- المصدر نفسه والقصيدة، ص: 34.

[7]- المصدر نفسه، " **أزهار الحنين** "، ص: 67، 68.

[8]- ينظر: المبرّد أبو العباس محمّد بن يزيد، " **المقتضب** "، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج: 2، ص: 06.

[9]- ينظر: عبد العزيز عتيق، " **علم المعاني**"، مرجع سابق، ص: 96.

[10]- أسرار الغربة ، " **اطمئنّي أمّاه** "، ص: 73.

[11]- ينظر: عبد العزيز عتيق، " **علم البيان** "، مرجع سابق، ص: 157-171.

[12]- ينظر: عبدا لعزيز عتيق، " **علم المعاني** "، مرجع سابق، ص: 116.

[13]- ينظر: الطّاهر يحياوي ومحمّد توّامي، " **شعراء وملامح** "، مطبعة أومزيان، الجزائر، ط: 1، ص: 117.

[14]- أسرار الغربة، " **معزوفة الألم** "، ص: 116.

[15]- ينظر: عبد العزيز عتيق، " **علم البيان** "، المرجع السّابق، ص: 164.

[16]- أسرار الغربة ، "**مأواك الغاب**"، ص: 127.

[17]- ينظر: شلتاغ عبود شرّاد، " **الغماري شاعر العقيدة الإسلامية** "، دار مدني، الجزائر، ص: 233، و" **المعجم الوسيط** " باب الجيم.

[18]- بوح في موسم الأسرار، " **مدي مضاءك** "، ص: 35.

[19] ينظر: فتحي يكن، " **حركات ومذاهب في ميزان الإسلام** "، شركة الشّهاب، الجزائر، 1989، ص: 108.

[20] بوح في موسم الأسرار، " **مدّي مضاءك** "، ص: 35.

[21] ينظر: محمّد مرتاض، " **الموضوعاتية في شعرالطفولة الجزائريّ** "، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص: 76.

[22] بوح في موسم الأسرار، " **ألمّ هواك** "، ص: 60.

[23] نفسه، " **هم الآن** "، ص: 124.

[24] ينظر: يحياوي الطّاهر، " **البعد الفنّي والفكري عند الشّاعر مصطفى الغماري** "، المؤسّسة الوطنية للكتاب، ط: 1983، ص: 119.

[25] أسرار الغربة، " **لو قرأت كتابي** "، ص: 71.

[26] المصدر نفسه والقصيدة، ص: 70.

[27] ينظر: محمد مرتاض، " **الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائريّ** "، مرجع سابق، ص: 02.

[28] أسرار الغربة، "**عندما توقظني الذّكرى**"، ص: 169، 170.

[29] ينظر: محمّد الهادي الطّرابلسي، " **خصائص الأسلوب في الشّوقيات**"، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرّسمية للجمهورية التّونسية، 1981، ص: 438.

[30] بوح في موسم الأسرار، " **يا حادي الغول** "، ص: 08، 09.

[31] بوح في موسم الأسرار، " **أضغاث حلم** "، ص: 116.

[32] ينظر: الطّاهر يحياوي ومحمد توّامي، " **شعراء وملامح** "، مرجع سابق، ص: 119.

[33] بوح في موسم الأسرار، " **همُ الآن** "، ص: 121.

[34] بوح في موسم الأسرار، "**هم الآن**"، ص: 126.

[35] المصدر نفسه، " **مناجيـــات** "، ص: 126.

[36] ينظر: عبد العزيز عتيق، " **علم المعاني** "، مرجع سابق، ص: 83.

[37] أسرار الغربة، "**لن تموت الحقيقة**"، ص: 78.

[38] ينظر: عبد العزيز عتيق، "**علم المعاني**"، مرجع سابق، ص: 96.

[39] المعركة الشّهيرة بين جيشي عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان: **40 هـــ .**

[40] بوح في موسم الأسرار، " **ألمّ هواك** "، ص: 58.

[41] ينظر: شلتاغ عبود شرّاد، " **الغماري شاعر العقيدة الإسلامية** "، مرجع سابق، ص: 93.

[42] ينظر: عادل طه، " **المسلمون في العالم، أضواء على مشاكلهم** "، دار البحوث العلمية، الكويت، ط: 1980، ص: 45، 46.

[43] بوح في موسم الأسرار، " **مدّي مضاء** "، ص: 33.

[44] ينظر: زكي مبارك، " **التصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق** "، مرجع سابق، ص: 198.

[45] بوح في موسم الأسرار، " **مدّي مضاءك** "، ص: 36.

[46] ينظر: يوسف القرضاوي، " **الحلّ الإسلاميّ فريضة وضرورة** "، مكتبة رحاب، الجزائر، ط: 13، 1988، ص: 154.

[47] أسرار الغربة، " **بين قيس وليلى** "، ص: 50.

[48] ينظر: عبد العزيز عتيق، " **علم المعاني** "، المرجع السّابق، ص: 56.

[49] أسرار الغربة، " **موّال عاشق** "، ص: 190، 191.

[50] ينظر: عادل طه، " **المسلمون في العالم** "، مرجع سابق، ص: 66.

[51] المرجع نفسه، ص: 67.

[52] أسرار الغربة،" **اطمئني أمّاه** "، ص: 74.

[53] "**صحيح البخاري**"، دار التّراث العربي، بيروت، لبنان، مج: 1، د.ت، ص: 08.

[54] ينظر: حسن فتح الباب، "**شعر الشّباب في الجزائر بين الواقع والآفاق**"، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط: 1987، ص: 60.

[55] أسرار الغربة، " **نجوى إلى إقبال** "، ص: 112.

[56] "بوح في موسم الأسرار"، " **وجه ليلى** "، ص: 19، 20.

[57] ينظر: " **أسرار الغربة** "، من كلمة التقديم ، محمّد ناصر، ص: 14.